أكلة لحوم البشر.. حقيقة أم خرافة؟!

ظلت قضية «أكلة لحوم البشر» عصيّة على الفهم الإنسانى فكيف تواتى إنسان الجرأة على أكل لحم إنسان آخر حيّاً كان أم ميتًا؟! واختلف علماء الأنثروبولوجيا حول هذه المسألة التى اعتبرها البعض خرافة بينما أكد آخرون أنها ثقافة مرتبطة بمناطق معينة فى العالم.

وقد تفجرت القضية مجدداً الشهر الماضى مع محاكمة خبير كمبيوتر ألمانى اعترف بأنه أكل لحم أحد زملائه بادعاء أنه كان يرغب فى ذلك.

هذا المقال يقدم تحليلاً ثقافياً عن هذه المسألة والجدل الدائر بشأنها.

«وجهات نظر»





■■ يختلف علماء الأنثروبولوجيا الثقافية حول أشياء كثيرة، ولا يزال البعض منهم متمسكاً بالتقليد الذى يعارض إصدار أحكام قيمية على أية ثقافة. فهو على سبيل المثال يمنع عالم الأنثروبولوجيا من إدانة معاداة السامية النازية أو العبودية الأمريكية، لأن كلاً منهما كان فى يوم من الأيام مكوناً أساسياً من مكونات الثقافة. كما يمنع إدانة الممارسة المنتشرة حالياً فى أفريقيا وغيرها الخاصة بختان البنات. وبينما يجد معظم علماء الأنثروبولوجيا المستنيرين أنه من المستحيل الدفاع عن هذه النسبية، يؤمن بعضهم، كالراحلة مارجريت ميد، إيماناً قوياً بالقوى الخارقة التى يرتكز عليها دارسو خوارق الشعور والغيبيات، بينما تعتبر الغالبية العظمى من زملائهم هذا كلاماً فارغاً.

تدور أحدث المناقشات، وربما أكثرها مرارة، بين الأنثروبولوجيين حول أكل لحوم البشر. فمازال أغلبهم مقتنعين بأن أكل لحوم البشر كان منتشراً فى الماضى ومازال قائماً فى جيوب مستترة من العالم. وهم يدافعون عن هذا الاعتقاد فى مئات الأبحاث وفى كتب واسعة الانتشار مثل كتاب إيلى ساجان «أكل لحوم البشر» (١٩٧٤) وكتاب جارى هوج «أكل لحوم البشر والضحية البشرية» (١٩٧٣).

تتبنى أقلية من الأنثروبولوجيين رأياً عكس ذلك. فهم مقتنعون بأنه لا توجد الآن، ولا فيما مضى، ثقافة تأكل موتاها بشكل روتينى، أو تقتل أعداءها وتأكلهم. وكان النقاش يجرى بهدوء حتى عام ١٩٧٠ إلى أن فجره ويليام آرينز عالم الأنثروبولوجيا بجامعة نيويورك فى ستونى بروك. وكانت أداة التفجير هى كتابه «خرافة أكل البشر: الأنثروبولوجيا وأكل لحوم البشر». وقد نشرته لأول مرة مطبعة جامعة أوكسفورد فى عام ١٩٧٩.

لا ينكر أحد أنه خلال طوارئ الحياة والموت، مثل الجوع الشديد عقب غرق السفن أو سقوط الطائرات، أو أثناء المجاعات بالغة الشدة، قد يفضل الأفراد أكل جثث البشر على الموت. وليس هناك من ينكر أن الشعوب البدائية كانت فى بعض الأحيان تأكل جثة قائد الأعداء، الذى كانوا يخشونه فى يوم من الأيام، بعد الانتصار العسكرى، إما من باب الانتقام أو من قبيل الاعتقاد فى أن من يأكلونه سوف يكتسبون قوة العدو. كما أنه ما من أحد ينكر وجود السفاحين المرضى، حتى فى الثقافات المتقدمة، الذين يرتكبون جرائم قتل ويأكلون ضحاياهم.



السؤال المهم هو: هل كان أكل لحوم البشر عادة شائعة فى يوم من الأيام؟ الرأى المستقل الذى يعلنه آرينز هو أن هذا النوع من أكل لحوم البشر فولكلور محض، وقد اصطنعته رغبة إحدى الثقافات فى أن تكون متفوقة على غيرها. وهو يؤكد أنه ما من عالم أنثروبولوجيا جدير بالاحترام، أو أى شخص آخر موثوق به، قد شاهد مباشرة وليمة لأكل لحوم البشر. وهو مقتنع بأن الخرافة نشأت من اتهامات غير مؤيدة ساقتها إحدى الثقافات ضد ثقافة مجاورة مكروهة لديها، وكذلك المبشرين الذين يسهل خداعهم والأنثروبولوجيون السذج الذين كانوا يبتلعون كل حكاية يرويها لهم السكان المحليون الودودون.

لكن أية مراجعة عشوائية لكتب الأنثروبولوجيا المدرسية تبين أن معظم مؤلفيها لا يسلمون فقط بأن أكل لحوم البشر كان واسع الانتشار فى الماضى، بل إنه مازال قائماً بين القبائل البدائية فى أفريقيا، وأمريكا الجنوبية، وعلى جزر أوشيانا. ويقول عالم الأنثروبولوجيا المحترم مارفن هاريس فى كتابه «أكلة لحوم البشر والملوك» (١٩٩١) إن أكل لحوم البشر بين قبائل الأزتك المكسيكية كان طريقة للحصول على البروتين الذى كانوا بحاجة شديدة إليه.

بالنسبة للجمهور بصفة عامة، من ذا الذى يشك فى أنه كان هناك، وربما لا يزال، صائدو بشر شرسون يأكلون فريستهم؟ فما زال أكل لحوم البشر يظهر فى الروايات وأفلام السينما، فى الكارتون الذى يعرض أشخاصاً يُسلقون أحياءً فى قدور ضخمة. ويظهر كذلك فى النكات الخشنة: هل سمعتم عن آكل لحوم البشر الذى اختلف معه ابن عمه؟ أو آكل لحوم البشر الذى اعترف أن زوجته كانت كباب الحلة العظيم الذى أكله، وأنه سوف يفتقدها؟ أو آكل لحوم البشر الكاثوليكى الذى كان يأكل الصيادين فقط يوم الجمعة؟ أو طبيب الأسنان الذى كان يحشو أسنان آكل لحوم البشر بينما كان آكل لحوم البشر يأكله؟ أو آكل لحوم البشر الذى أبلغ المعالج النفسى أنه سئم أكل البشر؟وحين سئل عن رأيه فى المعالج النفسى قال «لذيذ». ويجب ألا ننسى آكل لحوم البشر الذى كان يسير فى الغابة ومر على حماته.

من بين القصائد الخماسية الفكاهية العديدة التى قرأتها، أحب هذه القصيدة مجهولة المؤلف:

أحد أكلة لحوم البشر الشجعان من بنزانس/أكل عماً واثنتين من عماته/ وبقرة وابنها/ وثوراً ونصفاً/والآن لا يمكنه زر بنطلونه.



وكلمة أكل لحوم البشر cannibal مشتقة من Carib، وهو اسم شعب محلى فى جزر الهند الغربية وأمريكا الجنوبية التقى به كولمبس. ووصف كولمبس فى يومياته الكاريب بأنهم أكلة لحوم بشر. لماذا؟ لأن هذا ما قاله له جيرانهم من قبيلة الأرواواك. فكيف عرفت مارجريت ميد أن المندوجومور فى غينيا الجديدة أكلة لحوم بشر؟ قال لها ذلك «الأرابيش الطيب».

يوثّق آرينز مئات الأمثلة المشابهة التى تتهم فيها إحدى الثقافات ثقافة أخرى بأكل لحوم البشر. فقد كان الصينيون القدماء يظنون أن الكوريين أكلة لحوم بشر. وكان الكوريون يظنون الشىء نفسه بالنسبة للصينيين. واتهم الأزتك غزاتهم الأسبان بأكل لحوم البشر. وكان الفاتحون، الذين كتبوا كل الكتب، هم بالطبع مصدر الاعتقاد بأن الأزتك

عن مجلة:

Skeptical Inquirer

ترجمة: أحمد محمود



أكلة لحوم البشر. وحين كان أرينز في طريقه إلى العمل الميداني في تنزانيا، أكد له السكان المحليون أن الأوربيين أكلة لحوم بشر. وهو يقول إنه ما من ثقافة في العالم ادعت أن أكل لحوم البشر من سماتها. فدائماً ثقافة أخرى هي المتهمة.



تعود الإشارات الكلاسيكية الخاصة بأكل لحوم البشر إلى الأساطير اليونانية القديمة وعمالقة «أوديسا» هوميروس ذوي العين الواحدة. وقدم هيرودوت رواية سمعها عن قبيلة من الرحل تسمى «أندروفاجي». وفي العصور الوسطى اتهم الكاثوليك اليهود بأكل الأطفال المسيحيين في طقوسهم. وساد اعتقاد بأن الساحرات كذلك يقتلن الأطفال ويلتهمنهم. والشيء الذي لا يصدق هو أن هذا الاعتقاد مازال قائماً حتى يومنا هذا بين بعض المتشددين الجهلة الذين تسيطر عليهم فكرة أن الطقوس الشيطانية، ومن بينها أكل الأطفال، تحدث في أنحاء الولايات المتحدة!

وقد وصم المبشرون البيض الأوائل الهنود الحمر، وخاصة قبائل الإيروكوا في نيويورك بأنهم أكلة لحوم بشر، حيث كانوا يرون أنهم متوحشون قساة لا عقل لهم. وتقول الطبعة الحادية عشرة من الموسوعة البريطانية إن الموهوك، وهو اسم إحدى قبائل الإيروكوا، ربما يعني «أكلة البشر». وليست هناك شذرة من الأدلة الموثوق بها على أن الإيروكوا، أو أية ثقافة أمريكية محلية، كانت تمارس أكل لحم البشر الشعائري.

كما كتب أنثروبولوجيون كثيرون عن أكل لحوم البشر بين سكان أستراليا ونيوزيلندة الأصليين. ففي بحث بعنوان «أكل لحوم البشر بين السكان الأصليين» أجراه قسم الأنثروبولوجيا بالجامعة الوطنية الأسترالية، واكتمل في عام ١٩٨٥، انتهت الدراسة المضنية للأدلة إلى أنه لم يكن هناك وجود قط لأكلة لحوم البشر من السكان الأصليين.

وغالباً ما تختلط أوصاف أكل لحوم البشر بخيال غير قابل للتصديق. ويحكي أرينز نقلاً عن مصدر ما، قوله عن أحد الأنثروبولوجيين أن أكلة لحوم البشر في أحد الشعوب هم جميعاً نساء يمكنهن تحويل أنفسهن إلى طيور حين يردن ذلك!

الشيء الغريب بشأن الأدبيات الكثيرة جداً عن أكل لحوم البشر هو غياب الروايات المباشرة. فلم ير الأنثروبولوجيون في الواقع طقساً من طقوس أكل لحوم البشر. ولا وجود لصور فوتوغرافية لهذه الممارسة. ويقول أرينز إن «أكلة لحوم البشر معنا دائماً، ولكن من حسن الحظ أنهم يتجاوزون إمكانية الملاحظة المباشرة فحسب».





يلخص لورانس أوزيورن الجدل الساخن، بين الأنثروبولوجيين الذين يتفقون مع أرينز وهؤلاء الذين يرفضون كتابه باعتباره لا قيمة له في مقال بعنوان: «هل يأكل الإنسان الإنسان؟».

كانت نتيجة هذه الضجة أزمة في قلب العلم، حيث أصدرت مدارس مختلفة من الأنثروبولوجيا، الثقافية والفيزيقية والأثرية، أحكاماً مختلفة اختلافاً جذرياً عما إذا كان الناس الآن، أو فيما مضى، أكلة لحوم بشر. ويكفي هذا لجعل البعض يتساءل إذا كان مكتوباً على تحالفات القائمة بين مجالات الأنثروبولوجيا الفرعية أن تنهار تماماً.

رد أنثروبولوجيو الاتجاه العام على كتاب أرينز بنفس القدر من الغضب الذي أبدوه تجاه كتاب ديريك فريدمان «مارجريت ميد وساموا»، وهو كتاب يكشف عن سذاجة ميد في أخذها الخرافات التي رواها لها مخادعو ساموا. ويكيل الأنثروبولوجيون اللعنات لأرينز في الاجتماعات. ووصف أصحاب عروض الكتب كتابه بأنه «خطير، وحاقد». وقد شكلت الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية لجنة خاصة لأكل لحوم البشر. ونشرت الجمعية هجومها على أرينز في كتاب «إثنوجرافيا أكل لحوم البشر» (١٩٨٣) الذي حررته باولا براون ودونالد توزيتش.

وزعم دي كارلتون جادجوسيك الطبيب الحائز على جائزة نوبل لأبحاثه الخاصة بمرض فيروسي في غينيا الجديدة يعرف باسم «كورو» أن المرض نقله أكلة لحوم البشر في قبيلة فورت حين كانوا يتعاملون الجثث. واعتقاداً بأن الأدلة تشمل أكلة لحوم البشر في غينيا الجديدة، قال إن الرد على أرينز «أقل من قدري ومكانتي». ومن ناحية أخرى، فشل ليل ستيدمان من جامعة ولاية أريزونا، بعد عامين من العمل في غينيا الجديدة، في العثور على أي دليل على أكل لحوم البشر.

رغم وجود معارضي أرينز، فقد اكتسب شكه الاحترام ببطء. وينقل أوزيورن في مقاله المنشور في مجلة «لينجوا فرانكا» أن موسوعة الأنثروبولوجيا في طبعتها لعام ١٩٩٦ تنتهي في مادة أكل لحوم البشر إلى ما يلي: «أكلة لحوم البشر، إلى حد كبير، شيء من اختراعنا». ويكتب بول بين في موسوعة كمبردج للتطور البشري (١٩٩٢): «أكل لحوم البشر الشعائري أو المعتاد نادر أو لا وجود له: فليس هناك شهود عدول رأوا تلك الممارسة بأعينهم، وتعتمد كل التقارير تقريباً على الشائعات». وقد أثنى عالم الأنثروبولوجيا المرموق أشلي مونتاجو، الذي طالما شك في روايات أكلة لحوم البشر، على كتاب أرينز ثناء عظيماً.

وفي السنوات الأخيرة زعم علماء الآثار أنهم عثروا على أدلة على أكل لحوم البشر في شظايا العظام البشرية الموجودة بين هياكل نياندرتال وفي مواقع الدفن في الثقافات القديمة الأخرى. ويعرض عالم الآثار تيموثي وايت من جامعة كاليفورنيا في باركلي في كتابه «أكلة لحوم البشر في مانيوس فيما قبل التاريخ» (١٩٩٢) أسباب اعتقاده أن شظايا العظام البشرية في تلال مدافن بويبلو الهندية في مانكوس كانيون بكولورادو تدل على أن هنود الأناسازي كثيراً ما كانوا يأكلون لحم البشر. وقد شبه أرينز بمن يؤمنون بأن الأرض مسطحة وينكرون كرويتها.

ليست تخمينات وايت مقبولة بين كل الخبراء، وهم يجدون تفسيرات غير أكل البشر فيما يتعلق بظروف ما يزيد على الألفين من شظايا العظام التي عثر عليها. فربما تشير الشظايا إلى ممارسات دفن أو أن الحيوانات البرية أكلتها. وحتى إذا كانت تلك أدلة على أكل لحوم البشر، فمن الممكن أن تعكس فحسب أحداثاً منفردة كانت وراءها المجاعة.

وبما أنني لست عالم أنثروبولوجيا، فإني أتردد في تبني أحد الجانبين في هذا الجدل شديد الحدة. وإن كنت متعاطفاً في الوقت الراهن مع أرينز، وربما كانت الحقيقة في مكان ما بين هذا وذاك. وقد يكون أكل لحوم البشر المعتاد أندر كثيراً مما يعتقده الأنثروبولوجيون الذين لهم مصلحة في تعزيز آرائهم السابقة. ومن المحتمل ألا يكون أكل لحم البشر خرافياً كما يفترض أرينز. وقد يحين وقت تحل فيه هذه المسألة. ■



هل سمعتم عن آكل لحــوم البشر الذي اختلف معه ابن عمه؟ أو آكل لحــوم البشر الذي اعترف أن زوجته كانت كباب الحــلة العظيــم الذي أكــله، وأنــه ســوف يفتقــدها؟ أو آكل لحوم البشر الكاثوليكي الذي كان يأكل الصيادين فقط يوم الجمعة؟!

